المحاضرة السابعة:أثر الفكر اليوناني في الفارابي

عناصر المحاضرة: تمهيد/ الفارابي وأجناس الأدب اليوناني/ الفارابي والمحاكاة بين أشعار العرب واليونان

تمهيد :

كان لثقافة أبي نصر الفارابي الواسعة، أثرا في شرح فكر المعلم الأول أرسطو طاليس، فقد أخذ على عاتقه جمع أطراف الأفكار والتوفيق بينهما. ويبدو أنه أخذ برأي أفلاطون الذي يرى أن يتخلى الجمهور عن مهمة النقد التي ليس هو أهلا لها، ليترك الأمانة لمن يستطيع حملها. وهو الفيلسوف

بيد أن عمل الفارابي واجهته صعوبات عدة، ومنها: إن المادة الأولى لفكر الفارابي النقدي هي أفكار أجنبية تتحدث عن ماهية أدب أجنبي ومميزاته وبأصنافه المختلفة، بعيد عن طبيعة الشعر. وأمر بديهي أن يشوب الإلمام بالمفاهيم النقدية الأجنبية بعض المفارقة، لغموض الموضوع أو الترجمة ويزيد هذا الغموض عتمة إن عسر أو انتقى الاطلاع على الشعر الأجنبي، حتى وإن وجدنا إشارات تدل على إطلاع الفارابي على نماذج من شعر اليونان، فلاشك في أن تكون قاصرة على أن تصبح موضوعا مختبرا يكفي لتوضيح المفاهيم النقدية الأرسطية، وما تبعها من شروح فضلا عن أن ما وردنا من الترجمات من اليونانية قد مر بترجمة وسيطة إلى اللغة السريانية فإن اطلع الفارابي على نصوص هذه الترجمات يزيد الأمر التباسا كما يقول الجاحظ: (**والشعر: لا يستطاع أن يترجم ولا يجوز عليه النقل: ومتى حول تقطع نظمه وبطل وزنه وذهب حسنه، وسقط موضع التعجب. لا كالكلام المنثور، والكلام المنثور المبتدأ على ذلك أحسن وأوقع من المنثور الذي تحول من موزون الشعر**)

فلا يفاد من الشعر المترجم إلا معناه وموضوعه، وهذه نافذة تدخلنا إلى إشكال آخر تواجهه هذه الدراسة النقدية يدور حول المحور الخاص بالأصناف الشعرية الإغريقية، التي يذكرها أرسطو طاليس، وهي: شعر الملاحم، والمآسي، والملاهي، والشعر الحماسي، وموسيقى الناي والقيثار، والتي يراها بمفهومها العام وسائل محاكاة

الفارابي وأجناس الأدب اليوناني

وحاول الفارابي الإلمام بمفاهيم الشعر اليوناني النقدية. فلم يكتف بما سبقه من تراجم لكتاب فن الشعر، بل استعان بما توفر له من شروح وملخصات فيشير إلى ذلك بقوله: (**فهذه أصناف أشعار اليونانيين ومعانيها على ما تناهت إلينا من العارفين بأشعارهم، وعلى ما وجدناه في الأقاويل المنسوبة إلى الحكيم أرسطو في صناعة الشعر، وإلى ثامسطيوس، وغيرهما من القدماء والمفسرين لكتبهم**)

وأدى هاجس التقصي في البحث هذا عند الفارابي إلى إضافته أصنافا من الشعر اليوناني لم ترد في النص الأصل. ونحن لا نرى أن الفارابي قد لفق هذه الأصناف كما ظن ذلك الدكتور عبد الرحمن بدوي، بل ذهب إلي أن هذا الفضل في الأصناف جاء من شروح وملخصات كتاب الشعر، إذ قال الفارابي: (**وقد وجدنا في بعض أقاويلهم معاني ألحقوها بأواخر تعديدهم هذه الأصناف، ونحن نذكرها أيضا على ما وجدناه.**) ، غير إن القراءة المتفحصة للنص تفيد أن الفارابي يحدد وبدقة بأن هذه الأصناف قد عددها أرسطو طاليس كما هو ظاهر في هذا النص: (**ونحن نعدد أصناف أشعار اليونانيين على ما عددها الحكيم في أقاويله في صناعة الشعر، ونومئ إلى كل نوع منها إيماء فنقول: إن أشعار اليونانيين كانت مقصورة على هذه الأنواع التي أعدها وهي: طراغوذيا، وديثرمبي، وقوموذيا، وإيامبو، ودراماطا، وأيني، وديقرامي، وساطوري، وفيموتا، و أفيقي، وريطوري، و إبفيجاناساوس، و أقوستقي**)

ويتضح أيضا من هذا النص اعتقاد الفارابي بأن هذه الأصناف تخص الشعر اليوناني، وإن توفرت لهذا الموضوع دراسة تاريخية مقارنة بين الشعر اليوناني والسرياني واللاتيني لظهرت نتائج تكشف لنا – لا على سبيل التكهن – بأن هذه الأصناف المضافة تابعة للشعر السرياني القديم أو اللاتيني، وبدا واضحا لنا أن إدراك الفارابي الفرق بين طبيعتي الأدبين – اليوناني والعربي – وأنواعها، وتقصيه المفاهيم النظرية النقدية، كان لهما الأثر في حرصه على الفصل بين الأدبيين ووصف كل منهما بخصائصه، غير أن الفارابي أراد أن يسحب بعض المفاهيم النقدية على الشعر العربي مراعيا مبدأ العام والخاص في هذا الأمر.

وكما يتضح من حديثه عن شعر هوميروس – بعد اطلاعه عليه حتما – في هذا النص: (**ويبين من فعل أوميروس شاعر اليونانيين أنه لا يحتفظ بتساوي النهايات**). وسبق حديثه هذا عن الشعر العربي مشخصا الاختلاف في هذا الجانب فقال: (**إن للعرب من العناية بنهايات الأبيات التي في الشعر أكثر مما لكثير من الأمم التي عرفنا أشعارهم. فإذن إنما يصير أكمل**

و أفضل بألفاظ محدودة: أما غريبة وأما مشهورة. وأن تكون مقسومة الأجزاء وأن تكون أجزاؤها في كل إيقاع وسلاميات وأسباب وأوتاد محدودة العدد، وأن يكون ترتيبها في كل وزن ترتيبا محدودا"

ويقول أيضا مفرقا بين الشعر اليوناني وشعر الأمم الآخر: (**إن جل الشعراء في الأمم الماضية والحاضرة الذين بلغنا أخبارهم خلطوا أوزان أشعارهم بأحوالها، ولم يرتبوا لكل نوع من أنواع المعاني الشعرية وزنا معلوما إلا اليونانيين فقط فأنهم جعلوا لكل نوع من أنواع الشعر نوعا من أنواع الوزن**"، وحين يجد الفارابي تشابها في جانب معين في الشعرين – اليوناني والعربي – يشير إلى اختلاف المصطلح الدال عليها، وكذلك أشار إلي الأوزان العربية وما تنقسم إليه: (وهي التي تعرف عند العرب بالأسباب والأوتاد، وعند اليونانيين بالمقاطع والأرجل

والكلام في نظرة الفارابي للاختلاف بين شعر الأمتين يقودنا إلى موضوع أكثر تشعبا: حدوده العامة تشمل الأجناس الأدبية اليونانية – الأصناف الشعرية باصطلاح الفارابي – وفهم الفارابي لها ومحاولته تقريب المفاهيم النقدية الخاصة بها إلى حيز مفاهيم الشعر العربي النقدية.

إن المفهوم المبسط للنقد هو الموقف الفكري والذوقي من العمل الفني. وإن طبيعة تكوين الإنسان الفسيولوجية والفكرية والنفسية، تجعل أحكامه الحملية على موضوع ما تتبع القياس المنطقي بالضرورة، وتتحمل أحكامه التصنيف الثلاثي (الأفضل، أو الأسوء، أو المساوي) ونرى أن هذه الأحكام لها أصول سلفية، اشتركت في تكوينها طبيعة المخلوق الذي سبق الإنسان – أو سبقت ولادة الفكر الإنساني – واشترك بها العقل الإنساني، وهذا الاتجاه في الحكم له أصله المادي حتى وإن اعتمدته الفلسفة المثالية إذ يرى أفلاطون إن للنفس الإنسانية قسمين: أفضل ووضيع وتكون المعقولات، أو مواضيع القضايا ثلاثة أصناف كما يذكرها الفارابي: (صنف للهندسة العملية، وصنف أول يوقف بها على الجميل والقبيح مما شأنه أن يعمله الإنسان، وصنف أوائل يستعمل في أن يعلم بها أحوال الموجودات التي ليس من شأنها أن يفعلها الإنسان، ومبادئها ومراتبها)

ويظهر من هذا الكلام أن الاختيار بين الجميل والقبيح يخص النتاج الإنساني، والشعر جزء منه فلا شيء مخلوق في الطبيعة قبيح في ذاته بل جميل في موقعه من الكون، ويبين الفارابي أن

الحكم الإنساني إذا اعتمد قوة الحس الظاهر وقوة المتخيلة يسمى الإرادة، وإن اعتمد الفكر سمي الاختيار، وهو أخص.

ويعمد الفارابي إلى ذكر هذه الأصناف بالمصطلحات المعروفة بها باللسان إلى اليوناني، فهو يأخذ على متى والمترجمين بأنهم نقلوا المصطلح اليوناني إلى اللغة العربية فقال: (والفلسفة الموجودة اليوم عند العرب منقولة إليهم من اليونانيين، وقد تحرى الذي نقلها في تسمية المعاني التي فيها أن يسلك الطريق التي ذكرنا، ونحن نجد المسرفين والمبالغين في أن تكون العبارة كلها بالعربية. وقد يشركو (كذا بينها وإن عدنا إلى منهج اللغويين في التعريب فنجد سيبويه في القرن الثاني للهجرة قد قال في بحث التعريب: (اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم، وربما لم يلحقوه. فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم فدرهم، ألحقوه ببناء هجرع، وبهرج ألحقوه بسهلب... ولما أرادوا أن يعربوه ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية، وربما تركوا الاسم على حالة إذا كانت حروفه من حروفهم، كان على بنائهم أو لم يكن نحو: خراسان، وخرم وكركم، وربما أبقوا الحرف الذي ليس من حروفهم، ولم يغيروه عن بنائه في الفارسية نحو، فرند وبقم، وأجر، وجريز) وهذا التساهل لا يمثل ضعفا في اللغة بل هو علامة على قدرة اللغة العربية على استيعاب المصطلح أو المفردة الأجنبية وعلامة دالة على احترام العلاقة بين الدال والمدلول من جهة علمية.

الفارابي والمحاكاة بين أشعار العرب واليونان

وقد تحدث الفارابي عن ماهية العمل الفني (المحاكاة)، وهي الأسلوب العام والمشترك الذي يجمع فنون الشعر، وهي الفارق الخاص بين الشعر والقياسات المنطقية الأخرى، بعد أن عد الشعر نوعا من أنواع السولوجسموسأو ما يتبع السولوجسموس، فيعرج بعد ذلك إلى الحديث عن كيفية تنوع الأقاويل الشعرية فقال: (وإذا قد وصفت ما تقدم ذكره فخليق بنا أن نصف الأقاويل الشعرية: أما أن تتنوع بأوزانها، وأما أن تتنوع بمعانيها...) فيجد الفارابي نفسه أمام شعرين لأمتين يجمع بينهما عامل عام وهو (المحاكاة) التي عرض لموضوعها، ووجد أن تنوع الشعر يتبع تنوع أوزانه ومعانيه، فذكر المعاني العربية – أو أغراض الشعر العربي – التي صنفها العلماء بالرموز والمعبرون بالأشعار. إلا أنه وجد فارقا خاصا في هذا الموضوع يميز بين الشعر الإغريقي من غيره من شعر الأمم فقال: (إن جل الشعراء في الأمم الماضية والحاضرة

الذين بلغنا أخبارهم خلطوا أوزان أشعارهم بأحوالها ولم يرتبوا لكل نوع من أنواع المعاني نوعا من أنواع الوزن مثل أوزان المدائح غير أوزان الأهاجي، وأوزان الأهاجي غير أوزان المضحكات، وكذلك سائرها.)

لقد نظر الفارابي للشعر اليوناني، نظرة عارف محاولا الاستفادة مما يراه غير موجود في أدب العرب وبخاصة البناء الدرامي للمسرحية، والتشكيل السردي للملحمة، ومن ثم نقل هذه المفاهيم إلى النقد العربي، ومحاولا الإفادة من هذه الأفكار بطريقة تقريب المفاهيم النقدية اليونانية الملائمة لطبيعة الشعر العربي. وربما يتصور البعض أن خلو التراث الفني العربي من فن المسرح سبب عدم فهم النقاد لطبيعة الأدب اليوناني. لكن في هذا التصور بعض التجني على حقيقة الموروث الفكري العربي. وبرهان صحة قولنا هذا: أن الفارابي أدرك طبيعة الأدب اليوناني فهو يشير إلى شعر المسرح الإغريقي الذي تصاحبه الموسيقى التي تؤديها الجوقة الخاصة بأداء هذا الدور. وإن هذه الموسيقى تكون جزءا من الأداء المسرحي، فقال: (فبعض الأمم يجعلون النغم التي يلحنون بها الشعر أجزاء للشعر) غير أن الفارابي يحاول أن يسحب – مكيفا – المفاهيم النقدية الخاصة بفن ما إلى حيز المفهوم النقدي العام. وهو ارتباط الشعر بالموسيقى والغناء لإمكان اشتراك شعر الأمم في هذه الناحية، لتساوي أجزاء الشعر وانتظامها.

فيشير الفارابي إلى ارتباط الشعر بالموسيقى لأنها صفة عامة. ويجد الفرق بين شعر الأمم يكمن في كيفية هذه العلاقة. فالإغريق تجعل ألحان الشعر (كبعض حروفه، حتى إن وجد القول دون اللحن بطل وزنه، كما لو نقص منه حرف من حروفه بطل وزنه وبعضهم لا يجعل النغم كبعض حروف القول، ولكن يجعلون القول بحروفه وحدها، وذلك مثل أشعار العرب

وهنا يشير الفارابي إلى بطلان وزن الشعر اليوناني إن لم يصحبه اللحن لعدم اكتمال الأداء المسرحي الذي تقوم الجوقة بجزء منه. وفي مكان آخر يوضح الفارابي علاقة الجوفة الموسيقية بال (طراغوذيا) فقال (وكان الموسيقاريون يغنون بها بين يدي الملوك) ولا تفوته ملاحظة ارتباط النوع الثاني من شعر المسرح الإغريقي (الكوميديا) الملهاة بالنغم والموسيقى فقال (وأما قوميذيا فهو نوع من الشعر له وزن معلوم تذكر فيه الشرور وأهاجي الناس وأخلاقهم المذمومة وسيرهم الغير >كذا<المرضية. وربما زادوا في أجزائه نغمات ذكروا فيها الأخلاق المذمومة التي يشترك فيها الناس والبهائم، والصور المشتركة القبيحة أيضا